من حوار الفلسفة السياسية العربية

سهيل عثمان

ليس هذا البحث دفاعاً عن الفلسفة السياسية في تراثنا ٠ وانما هو حوار معها يكشف عن النقاط التي يمكن أن تعد نوى ديناميكية تتفجر بالتطور ٠ ولا جناح علينا اذا ذكرنا أن هذه الفلسفة مظلومة لاعزفاً على وتر الشكوى العاجز ، وانما دعوة الى اتباع منهج يجمع بين الأصالة والتطور في تناولها وفهمها دون ضياع حق الماضي والحاضر والمستقبل ٠

ومن مظاهر هذا الظلم الذي حاق بفلسفتنا السياسية أن أكثر الأبحاث التي تتناول فكر أبي النصر الفارابي السياسي ـ ان لم تقتصر على تلخيصه ـ تشغل نفسها وقارئها بالتنقيب عن نسب كل فكرة من أفكاره ، فهذه من أرسطو وأخرى مقتبسة من أفلاطون أو من أفلاطونين ٠٠ وقل ان اهتم الباحثون بفكر الفارابي بنية قائمة بذاتها لها تفاعلها مع الحياة وتطلعاتها ، وفيها جدل بين المثال والواقع ، ويمكن التحاور معها لفهم شخصيتنا السياسية بخاصة وتطور الفكر السياسي بعامة ، أو استخلاص ما ينعكس منها على حركة الفكر السياسي المتطورة ٠

وقد عاش الفارابي بين القرنين الثالث والرابع الهجريين أي التاسع والعاشر الميلاديين وانتقل من بلاد ما وراء النهر الى بغداد فحلب فدمشق حيث توفي ٠ وكان أثيراً عند سيف الدولة وان لم يكلفه انفاق المال الوفير عليه نظراً لزهده ٠ وألف ما يقرب من مئة كتاب ورسالة في مختلف أبواب الفلسفة يومئذ ٠ بعد أن درس العلوم التراثية العربية والاسلامية ونهل من الفلسفة اليونانية وامتداداتها ٠ فتلمذته وأستاذيته واسعة ، ومهما قيل في أخذه عن هذا الفيلسوف أو ذاك ، وتأثره بمذاهب عصره الدينية البحتة أو الدينية ذات الطابع السياسي فان تفكيره السياسي يظل فكراً قائماً بذاته لا يحل محله سواه ٠ ولا يمكن

لأي باحث منصف أن يدعي أن قراءة كتابي الجمهورية والنواميس لأفلاطون تغني المرءعن قراءة (آراء أهل المدينة الفاضلة)و(السياسة المدنية) الفارابيين ولكي نثبت بعض ماندعيه أو ندعو اليه سنحاول تفهم فلسفة الفارابي السياسية · تلك الفلسفة التي أنشأها فكر مفعم الشعور بوحدة الكون وانتظام الموجودات في منظومة متناغمة يرتبط فيها العلوي بالسفلي والروحي بالمادي · والسماوي بالارضي والانساني · ولذلك نجده في كتابيه السياسيين الشهيرين اللذين سميناهما منذ قليل لا يعرض أفكاره السياسية مباشرة ، بل يبدأ بعرض فلسفته الكونية بما فيها من ألهيات وطبيعيات ونفسيات ليتخذ منها أساساً نظرياً لآرائه الاجتماعية والسياسية · ولكي نكون في الصورة معه نذكر باختصار أنه يعتقد بمبادىء روحانية ستة للوجود هي الله أو السبب الأول ثم العقول المفارقة للمادة وأقربها الى التفاعل مع الانسان آخرها وهو العقل الفعال ثم النفس فالصورة فالمادة ـ والثلاثة الأخيرة توجد في الأجسام وان لم تكن ذواتها أجساماً ـ ويعتقد بموجودات جسمية ستة هي الأجسام السماوية فالاسطقسات أو العناصر فالمعادن فالنبات فالحيوان غير الناطق فالحيوان الناطق أو الانسان الذي يجمع بين التمتع بالحس والمخيلة والنزوع والقوة الناطقة العملية والقوة الناطقة النظرية · وهو مرشح للصعود الى مصاف الروحانيات اذا اتبع القوة الناطقة النظرية فأحسن التفكير ومن ثم أحسن الفعل ·

وتمهيداً للانتقال الى الأبحاث الاجتماعية والسياسية يذكر أن من الأحياء ما لا يعيش الا بالاجتماع مع أفراد نوعه ، ومنها مايقدر على نيل ضروريات العيش عند الانفراد ولكنه يعجز عن تحصيل ما يحسن به عيشه ويصل به الى أفضل ما يستطيع الا بالاجتماع ومنها ما يحتاج الى الاجتماع لأي غرض كان ··· (·· ومن أنواع الحيوان والنبات ما لا يمكن أن ينال الضروري من أمورها الا باجتماع جماعة من أشخاصه بعضها مع بعض ومنها ما قد يبلغ كل واحد منها الضروري وان انفرد بعضها عن بعض ولكن لا يبلغ الأفضل من أحوالها الا باجتماع أشخاصه بعضها مع بعض ص ٦٩ · السياسة المدنية) والانسان من هذه الأنواع التي لا تنال ضروري العيش ولا أفضله الا بالاجتماع على العكس من بعض الأنواع التي تستغني عن الاجتماع حتى في التناسل ·

ومن المعروف أن الفارابي يقسم الاجتماعات البشرية الى كاملة وغير كاملة · فالاجتماعات الكاملة اما أن تكون عظمى أو وسطى أو صغرى فالاجتماعات العظمى هي ـ كما جاء في آراء أهل المدينة الفاضلة ـ اجتماع الجماعة كلها في المعمورة ، وأما في السياسة المدنية (اجتماع أمم كثيرة تجتمع وتتعاون ص ٦٩) وأما الاجتماعات الوسطى فهي اجتماع أمة في جزء من المعمورة · وأما الاجتماعات الصغرى فهي اجتماع أهل المدينة في جزء من مسكن أمة وقبل أن نترك هذا الركن نلاحظ أنه يعرف وجود الأمم ويعد الأمة جماعة متوسطة بين المدينة والمعمورة بل ويعرف اجتماع المعمورة أو اجتماع الانسانية بالأمم التي تتكون منها · ثم نذكر الجماعات غير الكاملة التي تتدرج من الاجتماع في قرية أو محلة ثم في سكة وأخيراً في منزل ، ولا ينسى اجتماع المنزلة من منازل الطريق · والفارابي هنا محلل واقعي يشبه علماء الاجتماع والاتنولوجيا · ويرى أن المحلة جزء من المدينة ، وأن المدينة جزء من مسكن أمة ، والأمة جزء من جملة أهل المعمورة · ويكون التعاون المؤدي الى الخير الأقصى من نوع

الاجتماعات الكاملة لا الناقصة ولذلك يبدأ بالمدينة (والخير الأفضل والكمال الأقصى انما ينال أولا بالمدينة لا بالاجتماع الذي هو أنقص منها ص ٧٨ ٠ آراء) ومما يتضمنه هذا الرأي أن الدولة لا تقوم على القرية أو المحلة أو المنزل بل الحد الأدنى المناسب لقيام الدولة هي المدينة التي تحيط بها قرى تتعاون معها ٠ مع عدم نفي الدول الأوسع ٠ وللفارابي بحث في الأمم يقوم على المعطيات الواقعية التي حصل عليها واقتنع بها وليس على التفكير الأخلاقي في ما يجب أن يكون ، فهو يرى أن الأمم وان اتفقت في الطبيعة الانسانية العامة تتمايز وتختلف في بيئاتها الطبيعية التي نشأت وعاشت فيها وتغذت منها وبالتالي تتباين الخصائص الناتجة عن تأثيرات المناخ والغذاء مثلما تتباين في لغاتها ، ويؤدي تداخل هذه العوامل الى خصائص وتنوعات عديدة (والأمة تتميز عن أمة بشيئين طبيعيين ، بالخلق الطبيعية والشيم الطبيعية ٠ وبشيء ثالث وضعي وله مدخل ما في الأشياء الطبيعية وهو اللسان أعني اللغة التي بها تكون العبارة ص ٧٠ سياسة) وهو يفسر اختلاف الخلق والشيم الطبيعية كما يلي (٠٠ ويتبع اختلاف البخار اختلاف الهواء واختلاف المياه ص ٧٠ ويتبع هذا اختلاف النبات واختلاف الحيوان غير الناطق فتختلف أغذية الأمم ويتبع اختلاف أغذيتها اختلاف المواد والزرع التي منها يتكون الناس الذين يخلفون الماضين ويتبع ذلك اختلاف الخلق واختلاف الشيم الطبيعية ٠

٠٠٠ ثم يحدث من تعاون هذه الاختلافات واختلاطها امتزاجات مختلفة تختلف بها خلق الأمم وشيمها ٠ ص ٧١ ٠ سياسة) ولنلاحظ أن أثر العامل الجغرافي البيئي لا يقتصر على توجيه التكيف الارادي للانسان في الاقتصاد والاستراتيجية وانما يلعب دورا بيولوجياً في تكوين أبناء البيئة ٠ ولسنا هنا في مجال مناقشة آرائه بل في مجال عرض نماذج من تفكيره القائم على العوامل الواقعية والمادية لنؤكد أنه ليس مثالياً بحتاً ولم يبحث في السياسة من الزاوية الأخلاقية وحدها ٠ ولنؤكد أيضاً انه وان اهتم بدولة المدينة فهو لم يجهل وجود الأمم وكيانها ٠ وغاية الانسان عند الفارابي هو الوصول الى السعادة فالاجتماع الفاضل هو الذي يقصد به التعاون على نيل الأمور التي توصل الى السعادة سواء أكان مدينة أم أمة أم معمورة فاضلة (ص ٧٨ آراء) ٠ وليس الخير هو السعادة وحدها وانما تعتبر الوسائل والطرق التي تؤدي اليها خيرا (والسعادة هي الخير على الاطلاق وكل ما ينفع في أن تبلغ السعادة وتنال به فهو أيضاً خير ص ٧٢ ٠ سياسة) وأما الشر فهو ما يعوق عن تحقيق السعادة وهو شران طبيعي وارادي ٠ وليس واجب الدولة الفاضلة ازالة الشر الارادي الناتج عن ارادة الانسان فقط بل واجبها أيضاً ازالة الشر الطبيعي الناتج عن طبائع الكائنات الأخرى وتفاعلاتها ٠ (وبلوغ السعادة انما يكون بزوال الشرور عن المدن وعن الأمم ٠ ليست الارادية منها فقط بل والطبيعية ٠ وأن تحصل لها الخيرات كلها الطبيعية والارادية ص ٨٤ ٠ سياسة)

وهذا جانب من جوانب الفارابي يمكن أن ينفذ من خلاله التطوير ، فالتعاون للتخلص من الشر الطبيعي يعني في معجمنا الحديث التخلص من الأمراض والأوبئة ونقص الغلات وما الى ذلك من معيقات الانسان عن تحقيق أهدافه في نيل أفضل حياة ممكنة ٠

ويذكر الفارابي شروطاً لا غنى عنها لنجاح الدولة في تحقيق مهماتها من ذلك أن يكون جميع مواطنيها واعين مطلعين على عقيدتها

مقتنعين بها • فالدولة الفارابية الفاضلة دولة عقائدية وليست الدولة العقائدية أمراً شاذاً في التاريخين القديم والحديث • مع تنوع العقائد طبعاً • والعقيدة التي يراها كفيلة بضمان وحدة الدولة ونجوعها هي فلسفته الكونية والنفسية وانعكاساتها على السياسة • ويرى أن الناس يختلفون في مستوى فهمهم لهذه العقيدة ، وهذا الاختلاف لا يعفي الموجهين من توضيحها لهم واقناعهم بها • وعلى أولئك الموجهين أن يشرحوا الأمور على قدر الافهام ، فمن كان ذا قدرة عقلية عالية متدربة تقدم له الفلسفة المطلوبة بشكلها الأصلي العقلي الصريح • وممن كانت قدراته دون ذلك تشرح له من خلال تمثيلات وتشبيهات مما يستطيع فهمه والتفاعل معه • ومن هنا نجد الحقائق الواحدة في جوهرها تعبر عنها الملل تعبيرات مختلفة بحسب الشعوب التي توجهها، لأن لكل شعب أو أمة ظروفاً خاصة تعيش فيها تقدم لها محسوسات معينة يمكن أن تضرب لها فيها الأمثلة وتقدم من خلالها التشبيهات المحاكية للافكار العقلية المجردة ويدخل فيلسوفنا من هذا الباب الى تجنب التعصب فقد تكون الخلافات بين المذاهب خلافات ظاهرية سببها توخي التعبير المناسب للشعب وليست خلافات جوهرية، فالنظرة المتسامحة ذات الأفق الواسع يمكن أن تجد لها سندا عند الفارابي (ولذلك أمكن أن تحاكي هذه الأشياء لكل طائفة ولكل أمة بغير الأمور التي تحاكي بها للطائفة الأخرى فلذلك قد يمكن أن تكون أمم فاضلة ومدن فاضلة تختلف مللهم وان كانوا كلهم يؤمون سعادة واحدة بعينها ص ٨٥ ، ٨٦ سياسة) •

وعملية التوعية الهامة يقوم بها الحاكم وأعوانه من كبار المثقفين ، ومن أجلها يجعل القدرة على التعليم والارشاد من خصال الحاكم المثالي ، وفي امكاننا أن ننطلق من هذه الزاوية الى ضرورة التعليم وتعميمه في المجتمع • ومن شروط نجاح الدولة الفاضلة وضع الرجل المناسب في المكان المناسب ، ولا يوجد النظام أو يفيد الا اذا تحقق له هذا الأساس • والناس في نظر الفارابي متفاوتون في القدرات العقلية والبدنية كيفاً وكماً، ويحمل كل منهم استعدادا يؤهله للنجاح في صناعة من الصناعات أو عمل من الأعمال • ولا تجدي هذه القدرات الفطرية الا اذا أخذت بالتدريب والتعليم بحيث تصل الى نضجها وتتفتح كل امكانياتها • ومن الواجب معرفة قدرة كل مواطن وتعهدها بالتدريب والشحذ لكي يكلف صاحبها بالعمل الذي يناسبه ويجدي من خلاله • والمهمات ذات مستويات تجعل ممن يكلفون بها ذوي مقامات متباينة في الدولة وان كانوا جميعاً يصلون الى السعادة اذا قاموا بواجباتهم حق القيام • واذا كانت بعض الأساليب التي يقترحها الفارابي قابلة للنقاش فان المبدأ لا يختلف عليه اثنان وهو أن كل دولة لابد فيها من رئيس ومرؤوس ومن مواطنين يكون أحدهم رئيساً من ناحية مرؤوساً من ناحية أخرى وكلما قام التوزيع على أسس عادلة كان سير الأعمال أفضل •

ومن شروط نجاح الدولة توفر الحكم الصالح الذي يسميه الرئاسة • وهي نوعان عند الفارابي •

١ ــ رئاسة الرئيس المثالي الكامل ، الذي يتمتع بفطرة فائقة اذكاها التدريب والمتابعة الارادية حتى تم له العلم العام • فأصبح محيطاً بكل القضايا الكونية والانسانية (وانما يكون ذلك الانسان انساناً قد استكمل فصار عقلا ومعقولا بالفعل ص ٨٤ آراء)وهو فيلسوف ملهم في آن واحد لتمام عقله ومخيلته معاً بحيث يقبل الوحي عن العقل الفعال ، والموحي الحقيقي له هو الله أو السبب الأول•

وان نسبته الى المدينة كنسبة السبب الأول الى سائر العالم فهو الذي ينشئها وينظمهاويوزع مهامها وينصب غايتها وهو الملك الحق والامام فضلا عن كونه نبياً منذراً بما سيكون • انه انسان تام الانسانية والسعادة يعلم مايوصل الى السعادة ويقدر باللسان على نقل العلم الى سواه وارشاده • وبناء على ذلك يعدد خصال هذا الامام الاثنتي عشرة وخلاصتها انه كامل ذهنياً وأخلاقيا مع مساعدة بدنه على القيام بواجباته • ولا تتحقق هذه الخصال الا للقلة • وقد تخلو أزمنة مديدة من وجود هذا النوع من المتفوقين • مما يفسح المجال أمام النوع الثاني من الحكم • وقيادة هذا الامام فردية قائمة على العلم ، وقد تصبح قيادة جماعية اذا تعاصر أكثر من واحد متمتعين بالتفوق ذاته ، وهم لن يختلفوا لأنهم يقومون على قاعدة فكرية واحدة • ومثل هذا الحاكم انتهى من الفكر السياسي الحديث ولكننا نرى أنه لم يزل أمنية في العقل الجمعي لكثير من الشعوب وبخاصة تلك الشعوب ذات التاريخ الديني السياسي اللامع • وليس من السهل ازالته من أعماق العقل الجمعي ، وليس من المفيد تجاهله • وقد بدأ يستعيد قوته العملية في بعض بلدان المشرق غير البعيدة عن حدود الوطن العربي •

٢ ـ وحين تخلو الدولة من الرئيس المثالي يستعاض عنه بمن هو أدنى منه على شرط أن تكون الشرائع التي سنها مدونة فيحكم الحكام الأدنون بموجبها ، وشروط الحاكم البديل هي الحكمة والعلم بالشرائع التي سنها الأولون الكاملون مع دقة استنباط في المجالات التي لم يرد عن السلف تشريع فيها وقوة استنباط لما يتلاءم مع الحوادث الجديدة وجودة الارشاد والتعليم وأخيرا القدرة على القيادة الحربية • ويحكم البديل اما على شكل حاكم فرد مقيد بدستور الشرائع المدونة ،واما على شكل قيادة جماعية اذا لم تتوفر هذه الصفات في واحد من الناس وتوزعت على اثنين أو أكثر كأن تكون الحكمة صفة لأحدهم والقيادة الحربية صفة لآخر • ولا بد من توفر شرط الحكمة للحاكم البديل أو أحد المشتركين في الحكم ، والا خلت القيادة من الرئاسة الحقيقية وسارت الدولة الى الانهيار (وكانت المدينة تعرض للهلاك ص ٩٠ • آراء) •

وينادي الفارابي بالاجتهاد • ففي امكان الحاكم المتفوق أن يجتهد عند الظروف الجديدة وان أدى اجتهاده الى تغيير ما شرعه أمثاله السابقون عليه لأنهم لو وجدوا في مثل ظروفه لارتأوا رأيه (وتغيير أحدهم ما شرع الآخر لا يعني اختلافاً لأن الماضي لو وجد الضرورة ذاتها لغير ص ٨١ • سياسة) ومثل ذلك جواز الاجتهاد بل وجوبه للحاكم البديل اذ وجد مدينته أو أمته أمام ضرورات جديدة •ولسنا في حاجة الى التنويه بما في هذه الأفكار من امكانيات تطورية •

وما دامت أجهزة الدولة مرتبة ترتيباً هرمياً فان العلاقة بينها تكون بالتسلسل حفظاً للنظام ، عندما يريد أن يصدر أمراً أو يحدث شيئاً ـ والحديث عن الرئيس ـ (أوعز ذلك الى أقرب المراتب اليه وأولئك الى من يليهم وما يزال كذلك الى أن يصل ذلك الى من رتب لخدمة ذلك الأمر ص ٨٤ • سياسة) والمدينة مرتبة ومترابطة الأجزاء ترابط أجزاء العالم (•• وارتباطها وائتلافها شبيه بارتباط الموجودات المختلفة بعضها ببعض وائتلافها ص ٨٤ سياسة) •

ان في بحث الفارابي عن المدينة الفاضلة أو الدولة الفاضلة جوانب عديدة لم نتعرض لها ، فمهمة دراستنا ليست تلخيصية وانما

هي تستهدف الاشارة الى الافكار ذات الدلالة بالنسبة الى قضايانا المعاصرة • ولذلك نؤثر أن ننتقل الى بحثه حول المدن غير الفاضلة • ولن نقف عند كل جانب من جوانب بحثه الوقفة نفسها بل سنركز الاهتمام على النقاط الموحية • والمدن غير الفاضلة هي الجاهلة أو الجاهلية والفاسقة والضالة والمتبدلة والنوابت غير الفاضلة في المدن الفاضلة وأخيرا البهيميون الذين لا يحيون حياة مدنية ولا يعيشون في جماعات مدنية • • وكلامهم لايخلو من رواسب قديمة تتعلق بالرق •

وأوسع أبحاثه تدور حول المدن الجاهلية التي لم يعرف أهلها السعادة الحقيقية ويقسمها الى أنواع هي :

١ ـ المدينة الضرورية التي يقتصر أهلها على التعاون من أجل تحصيل ما هو ضروري للبقاء مثل الفلاحة والصيد واللصوصية • ونلاحظ تحرره في بحث هذه المدن من التحفظات الأخلاقية أكثر مما أتاح لفكره عند بحث المدينة الفاضلة • ويذكرنا تحصيل أهل هذه المدينة للضروري فقط برأي ابن خلدون في العمران البدوي القائم على ضرورات العيش ، وقد عد ابن خلدون الفلاحة من أعمال ذلك العمران •

٢ ـ ومدينة النذالة التي يسعى أهلها الى جمع المال دون اعتباره وسيلة للضروري أو الرفاه فالمال هنا غاية • وفضلا عن الفلاحة فان أبناء هذه المدينة يشتغلون بالتجارة والاجارة وغير ذلك أي يعددون طرق كسب المال •

٣ ـ مدينة الخسة وينشغل أهلها بتحصيل اللذة واللهو واللعب • ومثل هدفهم لا يتحقق الا بوجود الضروريات واليسار فوقها •

٤ ـ مدينة الكرامة ، وأهلها طلاب فخامة وتمجيد وتعظيم بين بعضهم أو عند الآخرين وكرامتهم اما أن تكون على التساوي فيما بينهم أو على التفاضل • والتفاضل يكون بحسب قيم متعددة تقربهم بعضها من المدن الأخرى كالتفاضل باليسار أو اللذة أو القوة أو الحسب • واذا أفرطت هذه المدينة في حب الكرامة انقلبت الى مدينة التغلب • ولايفوتنا أن نذكر أن الفارابي ليس عدوا للكرامة فقد جعلها من خصال الرئيس المثالي ولكنه معاد لاعتبارها الغاية القصوى •

٥ ـ مدينة التغلب ، وغاية أهلها هي التغلب على سواهم ومنهم من يرغب في غلبة الآخر على دمه ، ومنهم من يريدها غلبة من أجل الفدية المالية ، ومنهم من يرغب فيه ليستعبد الآخر ويستخدمه • وهم محتاجون لبعضهم من أجل التغلب على سواهم • وشرائعهم تخدم أغراضهم • ورئيسهم أقدرهم على تحقيق الانتصارات بالرأي أو السلاح أو البدن • ومن صفاتهم القسوة والبذخ وشدة النهم • وقد يستعبدون المجاورين لهم • وقد يستأثر بالتغلب واحد منهم يصبحون له جميعاً أدوات •

وقد تتداخل هذه المدن فلا يصل مثلا محبو اليسار أو اللذة الا بالغلبة ، وقد يصل أهل الكرامة الى مبتغاهم باليسار ، وقد يستخدم اليسار في اللذة واللعب • وقد تؤدي هذه المطامع الى طلب الرئاسات لتحصيل اليسار العظيم •

٦ ـ المدينة الجماعية ، التي يعمل كل مواطن فيها ما يشاء وما يحلو له • وأهلها متساوون (وتكون سنتهم ألاّ فضل لانسان على انسان في شيء أصلا ويكون أهلها أحراراً يعملون ما شاؤوا ص ٩٩ • سياسة) ولا

يكون لأحد عليهم سلطان، والجمهور هو المتسلط على من يقال لهم رؤساء في تلك المدينة (ويكون من يرأسهم انما يرأسهم بارادة المرؤوسين ص ٩٩ سياسة) والرؤساء يتبعون هوى المرؤوسين • وفي الحقيقة لا يوجد رئيس ومرؤوس بينهم • والمحمودون عندهم الذين يوصلونهم الى الحرية وما يبتغون من شهوات ويحفظونها عليهم بمدافعة أعدائهم • ويرفعون من شأن الرئيس الذي يعمل لغاياتهم ويقتصر على الضروري لنفسه • وأما الرؤساء الذين لا يتصفون بالزهد فانهم مساوون لرعاياهم ويقدم لهم الشعب المال مقابل خدماتهم • وهذه المدينة تسمى أيضاً المعجبة والسعيدة ـ لا السعادة الحقيقية ـ ويرغب الناس في سكناهم لأن قاطنها يفعل ما يريد ، ولذلك تتضخم ويأتي الأولاد مختلفي الفطرة والتربية فتغدو كأنها مدن متداخلة بعضها في بعض لا يتميز فيها الغريب من القاطن ، وفيها كل الأهواء والسير • وقد ينشأ فيها الأفاضل مع الزمن فيوجد فيها حكماء وخطباء وشعراء من كل ضرب • ويمكن أن تتضمن أجزاء من المدينة الفاضلة وهي أكثر مدن الجاهلية خيراً وشراً معاً • وقد تشترى فيها الرئاسات بالمال • ومع ذلك فان هذه المدينة هي ومدينة الضرورة أقرب الى نشوء المدينة الفاضلة من خلالهما (الا أن انشاء المدن الفاضلة ورئاسة الأفاضل تكون من المدن الضرورية والمدن الجماعية من بين مدنهم أمكن وأسهل ص١٠٢ سياسة •) واذا ماتأملنا حال هذه المدينة الأعجوبة نجدها بين الدولة البرلمانية أو الديمقراطية المباشرة وبين الدولة الغوغائية • واذا كان فيلسوفنا يعدد سلبياتها فهو أيضاً يحدد ايجابياتها ويعدها نواة ممكنة للمدينة الفاضلة أي حين يعي شعبها السعادة الحقيقية ويختار الأفاضل بحريته لقيادته •

وفي امكان الباحث أن يغدو أكثر اهتماماً بأمر هذه المدن اذا نظر اليها من خلال منظور واسع يتجاوز الدراسة الحرفية اذ يستطيع أن يعثر فيها على أنواع من الأنظمة كحكومة الأغنياء وحكومة العسكريين والارستقراطية والديمقراطية •• كما يعثر فيها على بذور دراسات طبقية ودولية • وفي الامكان النظر اليها كتيارات فكرية سياسية في المجتمع الواحد وتناقش من هذه الزاوية •

ولن نطيل في بحث المدن غير الفاضلة الأخرى كالمدينة الفاسقة التي عرف أهلها السعادة وأفعالها ولكنهم لم يتمسكوا بهذه الأفعال • ومالوا الى أغراض المدن الجاهلية • والمدن الضالة وأهلها حكيت لهم أمور مخالفة للامور الحقيقية • والمدينة المبدلة التي كانت لها آراء الفاضلة وأفعالها ثم تبدلت •

ويعود في أواخر كتاب السياسة المدنية الى بحث النوابت المشوشة في المدن الفاضلة بحثاً مطولا لن نفصل فيه القول الآن ولكن ننوه بناحيتين من نواحيه أولاهما أن صاحب الغرض قد يحرف المبادىء من أجل أغراضه • والثانية أن من ينكر الحق قد يكون صاحب قدرة عقلية عالية لم ترضها الادلة والتمثيلات المبدئية فيجب احترام عقله ورفع مستوى البحث معه •

وفي أواخر كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة يبحث في آراء أهل المدن الجاهلة والضالة بحثاً غنياً مكثفاً لن نتوسع في دراسته اليوم ولكننا نشير الى أنه يعرض آراء ونظريات ذات قيمة في التاريخ الفكري وان عرضها عرض المنكر لها مثل النظريات التي تقيم الدولة على أساس القوة وتنازع البقاء والعصبية • وهو يستطرد حتى يعرض بعض آراء الطبيعيين القدماء في كيان الانسان وسلوكه ، وبعض آراء الريبيين حتى الذين يقولون بأن ضرب الثلاثة في ثلاثة

ليس من جوهرها أن تكون النتيجة تسعاً فالمعرفة اتفاق واصطلاح بحسب قوانا · وسوف نقصر اهتمامنا على ما يتصل بالسياسة · مثل القول بأن الموجودات متضادة وكل منها مجهز بما يحفظ وجوده ، ويحوّل وجود سواه الى شيء نافع له · ومن الموجودات ما يميل الى القضاء على سواه وان لم ينتفع باهلاكه ، وكأن كل موجود هو المقصود وحده بالوجود (فاننا نجد كثيراً من الحيوان يثب على كثير من باقيها فيلتمس افسادها وابطالها من غير أن ينتفع بشيء من ذلك نفعاً ، يظهر كأنه قد طبع على ألا يكون موجود في العالم غيره أو أن وجودكل ما سواه ضار له ص ١٠٧ آراء) ويعرض فيلسوفنا من أفكار أنصار القوة ما يتضمن تنازع البقاء والبقاء للاصلح (فالاقهر منها لما سواه يكون أتم وجوداً والغالب أبدا اما أن يبطل بعضه لأنه في طباعه أن وجود ذلك الشيء نقص ومضرة لوجوده هو ، وأما أن يستخدم بعضاً ويستعبده لأنه يرى في ذلك الشيء أن وجوده لأجله هو ص ١٠٧ آراء) وبالتالي فالمدن يجب أن تكون متغالبة متقاتلة ومن يقهر الآخرين يكون الأسعد · وهذه الأصول التي يتفق عليها المنادون بالقوة تتشعب عنها تفرعات منها رأي يقول بتنافر كل انسان مع كل انسان ولا يأتلف اثنان الا عند الحاجة والضرورة ، واجتماعهما لا يتم على أساس التساوي بل على أساس قاهر ومقهور ، واذا كان الاجتماع لسبب وارد من الخارج مثل كارثة طبيعية أو هجوم حيوان مفترس فيجب أن ينتهي حال زوال السبب الخارجي · ومن أنصار القوة من رأوا أن الحاجة الى الاجتماع مستمرة مع الزمن كحاجة طالب القهر الى من يساعدونه على بغيته فيقهر قوماً آخرين يستعين بهم على قهر سواهم ، وليس المساعد مساوياً للاول بل مقهوراً مجبرا·

وذهبت جماعة أخرى الى أن القوم الذين يبتغون قهر سواهم تقوم الرابطة بينهم على أساس الائتلاف والمحبة الناتجين اما عن الاشتراك في والد واحد أي في الانحدار من أصل مشترك وكلما كان الوالد أخص بهم زادت الالفة فيما بينهم واندفعوا للتغلب على من عداهم · ومن هنا يذكر التجمع السياسي القائم على قوة القبيلة والتحالف بين القبائل ولا سيما أنه يذكر المصاهرة كرابطة من الروابط التي تجمع وتؤلف · وهذه الفكرة تشبه قوة العصبية التي انطلق منها ابن خلدون في بحثه عن قيام الدول أو السلالات الحاكمة لكثرة ما اطّلع على دول أسست على العصبية العشائرية · واما أن يقوم الارتباط بتشابه الشيم والخلق الطبيعية والاشتراك في اللغة على اعتبار أن أبناء كل أمة يتشابهون فيما بينهم ويباينون سواهم وهذا نوع من القومية أو العصبية القومية لأن الفارابي يذكره في مجال نظريات القوة · ثم يدلي بنظرية أخرى تقوم على القومية ولكن تجعلها ثمرة التساكن والعوامل الجغرافية عندما تحدث عن رأي الذين يرون الارتباط هو الاشتراك في المنزل ثم في المدينة فالصقع الذي فيه المدينة· ويتحدث عن اشتراكات عديدة بعضها تصلح لقيام الدول وبعضها لا يصلح الا لقيام جماعات جانبية ·

وأنصار القوة يرون أن موضوعات التغالب هي الكرامة والمال واللذات والوسائل المؤدية اليها والفئة القاهرة هي التي تفوز بها· والعدل هو التغالب ما دام هو طبع الانسان الجوهري · واذا ما قتل المقهور أو استعبد ليستخدم فيما ينفع الغالب فان هذا من العدل أيضاً في شريعتهم ··· وأما قواعد المعاملات وقوانينها فقد نشأت في الأصل بعامل الخوف المشترك بين متعاملين يعجز الواحد منهم عن

اغتصاب ما يود فهي قواعد طارئة على النفس الانسانية ترسخ بمرور الزمن فتأتي أجيال تجهل أصلها فتحسبها العدل الطبيعي انخداعاً. وليس التغلب دائماً بالمقاتلة الصريحة وانما قد يكون بالحيلة والخديعة والتظاهر بغير الحقيقة وادعاء العقائد .

ومن لفتات الفارابي ذكر مذهب الانسانيين في السياسة الذين يرون أن الرابطة الانسية تكفي لشيوع المحبة والتعاون بين أفراد البشرية ، ويكون التغالب بينهم وبين الانواع الأخرى (فالانسية للناس هي رباط فينبغي أن يتسالموا بالانسية ثم يغالبون غيرهم فيما ينتفعون به ص ١١٨ آراء) ويضيف في هذا المقام المدينة المسالمة الى قائمة مدنه. وأهل هذه المدينة يكرهون القتال ولا يقدمون عليه الا اذا أكرههم عدوان قوم آخرين عليهم . ويرى أن محبي التغالب سيئو النفوس وعدوانيون وأما المسالمون فحسنو النفوس طيبون لأنهم يمقتون العدوان والاغتصاب .

ولعل أهداف دراستنا هذه تزداد تأكداً حين نتأمل ما دونه الفارابي في كتاب (احصاء العلوم) عن العلم المدني الذي خصص عددا من الصفحات لتلخيص موضوعه ومنهجه وأقسامه فهذا العلم يعرفه كما يلي : (انه يبحث عن أصناف الأفعال والسنن الارادية وعن الملكات والاخلاق والسجايا والشيم التي عنها تكون الأفعال والسنن ، وعن الغايات التي من أجلها تفعل وكيف ينبغي أن تكون موجودة في الانسان وكيف الوجه في ترتيبها فيه على النحو الذي ينبغي أن يكون .. ص ٦٤ احصاء العلوم) فهو فعلا كما ذكرنا يعتبر العلم المدني علماً واقعياً معيارياً في آن واحد .. ويرى أن نجاح السياسي يعتمد على العلم بالقوانين التي تسير الأمور بموجبها وعلى الحنكة والمهارة المكتسبتين من التجربة والممارسة والمشاهدة . ولهذا الرأي انعكاسه على المنهج ، اذ يدخل التفكير العقلي الفلسفي فيه الى جانب متابعة الواقع وتقدير اختلاف الحوادث باختلاف الشروط والعوامل المتباينة (والفلسفة المدنية تعطي فيما تفحص عنه ... القوانين الكلية. ثم تتركها غير مقدرة لأن التقدير بالفعل لقوة أخرى ... ومع ذلك فان الأحوال والعوارض التي يحسبها يكون التقدير غير محدود ولا يحاط بها ص ٦٦ احصاء العلوم) .

فأما القوة الأخرى التي يجب أن تضاف الى اسلوب الفكر الفلسفي فهي القدرة على التجربة وتتبع الواقع والصلة به (كذلك المهنة الملكية يمكنها أن تقدر الأفعال بحسب حال حال وعارض عارض ومدينة مدينة في وقت وقت بهذه القوة وبهذه التجربة ص ٦٦ . احصاء العلوم) . وأرجو ألا يستخدم القول بأن أرسطو قد سبقه الى هذا الرأي كحاجز يحول دون الاستفادة من فكر فيلسوفنا السياسي والانطلاق من خلاله نحو آفاق أرحب وأكثر تلاؤماً مع الواقع المتجدد ، وأي مفكر لم يستفد من سابقيه وهل كان أرسطو ذاته خلقاً من العدم ؟

واذا بقي في المقام مجال فمن المناسب أن نخصصه لسياسة الشيخ الرئيس ابن سينا ، الذي تخضرم بين القرنين الرابع والخامس الهجريين ، واستوعب ثقافة عصره الفلسفية والتراثية والعامة وخبر حلو السياسة ومرها عملياً كالوزارة والسجن . وتقع مدينته الفاضلة في مكان قلما ينتبه اليه الباحثون ، فهي تكاد أن تكون مختبئة في الركن الأخير من القسم الخاص بالالهيات من كتاب (الشفاء)، وفي المقالة العاشرة بالتحديد . تقوم المدينة على عقد بين أبنائها يعتمد على شرع الهي

جاء به نبي ، وتابعه خلفاؤه من بعده . وهؤلاء الخلفاء الحكام أو الأئمة يخلف أحدهم الآخر اما باختيار أولي الفضل والسابقة ، أوبنص الامام السابق على من يخلفه . وطاعة هؤلاء الأئمة واجبة ديناً ومصلحة ، فان خرج عليهم عاص يتوجب على أبناء المدينة أن يقاتلوه الا اذا أثبت أن الحاكم القائم تنقصه بعض خصائص الحكم الضرورية فعندئذ تجوز المشاركة في ادارة الأمور . والى هنا نلمح مفهوم العقد ومفهوم الثورة .

وشريعة هذه المدينة تقسم من فيها حسب الطريقة الأفلاطونية الى مدبرين وحفاظ مدافعين وصناع ، وكل فئة مرتبة ترتيباً هرمياً بين رئيس ومرؤوس الى ألاّ يبقى في المدينة شخص سائب . ولكنها لا تصل الى المدينة التي تحدثت عنها جمهورية أفلاطون والتي تنعدم فيها الملكية والزواج الخاصان في الطبقات الحاكمة مدينة ابن سينا تعترف بحق التملك الخاص وبالأسرة الخاصة ويدافع ابن سينا عن حق الزوج في الطلاق مقابل دفعه غرامة ، وللقضاة حق تطليق المرأة اذا ثبت لهم استحالة تحقيق الأغراض الانسانية المنشودة من الزواج . ومدينة ابن سينا تتميز انسانياً عن جمهورية أفلاطون بأنها لا تقتل الضعفاء غير القادرين على الكفاح في الحياة ، وانما هي تبقي عليهم وتجعل مؤونتهم على أقربائهم ان كانوا من الميسورين ، واذا عجزوا عن أداء هذا الواجب يكفلهم بيت المال الذي ترد اليه لهذا الغرض النبيل أموال من ضرائب مفروضة على الأرباح الطبيعية والمكتسبة أو من غنائم الحروب التي تشن ضد المخالفين (... فان كان السبب في ذلك مرضاً أو آفة أفرد لهم موضعاً ــ والكلام عن الحاكم ــ يكون فيه أمثالهم ، ويكون عليهم قيِّم . ويجب أن يكون في المدينة وجه مال مشترك بعضه من حقوق تفرض على الأرباح المكتسبة والطبيعية كالثمرات والنتاج ، وبعضه يفرض عقوبة ، وبعضه يكون من أموال المعاندين .. ويكون ذلك عدة للمصالح المشتركة ... كتاب الشفاء ــ الالهيات ص ٤٤٧ القاهرة ١٩٦٠)

والمدينة الفاضلة أو العادلة السينوية تضمن حق العمل لجميع أبنائها، فلا يجوز أن تترك أحد مواطنيها متعطلا عن العمل وهذا مطلب انساني عظيم يعتبر ابن سينا من رواده ، وان لم يكن فيه غريباً على منطق التراث العربي الاسلامي . (... وأن تحرم البطالة والتعطل الشفاء ــ الهيات ٢ ص ٤٤٧) وتحرم المدينة الأفعال التي تدمر الحياة الاجتماعية فيها، اما من ناحية صحة النسل واستمرار النوع ،واما من حيث توفر الثقة ودوام الأعمال وانتشار الطمأنينة ، ولهذا يحرم الزنا واللواط والسرقة. ولا يجوز أن يحصل امرؤ على كسب دون عمل نافع أو عوض يقدمه لمن يربح منه سواء أكان هذا العوض مادياً أم معنوياً . ولهذا يحرم الربا (.. وتحرم أيضاً الحرف التي تغني الناس عن تعلم الصناعات الداخلة في الشركة مثل المراباة فانها طلب زيادة كسب من غير حرفة تحصله ــ المصدر السابق ــ ص ٤٤٨) .

ولا تمنع المراباة حسب بل كل استغلال وحصول على نفع دون وجه حق . وهذا مطلب انساني آخر رادنا اليه ابن سينا (.. وألا يجعل لأحد سبيلا الى أن يكون له من غيره الحظ الذي لا بد منه للانسان وتكون جنبته معافاة ليس يلزمها كلفة فان هؤلاء يجب أن يردعهم كل الردع فان لم يرتدعوا نفاهم من الأرض. ــ المصدر والصفحة نفسهما ــ .

وفي المصالح العملية المؤدية الى الحياة الدنيوية الكريمة يجب أن يتعاون الناس

ويتمتعوا بالفضائل الأربع وهي العفة القائمة على ترويض الرغبات أو الدوافع العضوية ، ثم الشجاعة أو ضبط النفس عند التعامل مع الانفعالات كالغضب والخوف ٠ ثم الحكمة التي تتحقق بحسن استخدام العقل ٠ ومجموع هذه الفضائل يسمى العدالة ٠ وكل فضيلة يقابلها افراط وتفريط هما رذيلتان فالشجاعة وسط بين الجبن والتهور ٠ هذا من حيث الحكمة العملية ، وأما الحكمة النظرية التي تسعى الى تمام العلم فهي ليست وسطاً وانما يستحب الامعان فيها حتى لا تبقى زيادة لمستزيد ٠ ولا يستطيع نذر النفس لها الا النفر القليل الذين اذا حصلوا جوهر الحقائق أصبحوا منارات عظيمة الاشعاع للبشرية جمعاء ٠

وأما عقيدة المدينة الفاضلة فهي الايمان بالله وعنايته بالكون والانسان وبالميعاد وبالمعاد وهذه العقائد تُعطَى بشكلها المبسط العام للجمهور دون الخوض أمامهم في التفصيلات التي تشغل وقتهم وتشوش عقولهم ، وقد تدخل الريبة والشك الى نفوسهم (ولا ينبغي له أن يشغلهم بشيء من معرفة الله تعالى فوق معرفة أنه واحد حق لا شبيه له ٠ وأما اذا علمهم مايتجاوز عقولهم فقد عظم عليهم الشغل وشوش في أيديهم الدين ـ المصدر نفسه ص ٤٤٢) ٠

تلك هي صورة اجمالية لمدينة ابن سينا الفاضلة نلمح فيها انصهار التراث العربي الاسلامي بعبقرية هذا الفيلسوف مع المنقول عن الثقافة اليونانية القديمة ، وان المجتمع الذي عاش فيه ساعد بلا شك على انضاج البناء المدني والسياسي في ذهن هذا الفيلسوف ذي التجربة الواسعة والثقافة الغنية ٠ ونرى أن الدعوة الى عدم البطالة صراحة تدل على وجود مجتمع معاصر له طرح هذه المسألة ولا تطرح الا في نظام للانتاج متطور نسبياً كأن تكون الصناعات أو الحرف يومئذ مزدهرة فيه واذا غلب على تلك الصفحات الشيقة من كتاب الشفاء التطلع الى ما يجب أن يكون ، فان ما يرجوه الشيخ الرئيس للبشرية ليس تافه القيمة ولا قليل الأهمية ٠ ولعله في وقته حلم، ولكنه أحد الأحلام الكبيرة التي تتسع لها رؤوس كبار المصلحين ٠ وابن سينا كالفارابي يفسح المجال أمام الاجتهاد فلكل حال ظروفه التي لا تستوعبها كليات الشرائع ولا يمكن أن تسن لها التعليمات الجزئية سلفاً ٠

